

طلائع الديكتاتورية

من علامات العصر الحاضر السياسية التي تستدعي التفكير ظهور الزعامات المطلقة في مدى واسع وصور خلافة واستعلاؤها واستفحال شأنها ، وضمور المبادئ والنظريات وتراجعها لانشغال القوم بعبادة الزعيم ، والتفاني في طاعته ، والاذعان التام لكلمته ، وكثير من أمم الحضارة تستمد وحيها في العهد الأخير من الأفراد ، وتنهل من معين شخصيتهم ، وتأتمر بأوامرهم ، وتترسم خطواتهم ، وأكثرهم ينعمون بسلطة لم يحظ بمثلها أكاسرة الفرس ، وأباطرة الرومان في الأزمنة القديمة ، ولم ينلها قياصرة الروس وسلاطين العثمانيين في العهود المتأخرة ، وقد برز أكثر هؤلاء الزعماء من الخفاء في صور غامضة وظروف ملتبسة يكاد يبدو فيها أثر الأسطورة وظل الخرافة ، ولقد كان للزعامات أثر كبير في تكوين التاريخ وتشكيل الحوادث وتوجيه الأمم ، ولقد ألله اليونان الحكام والطغاة وخلعوا عليهم القداسة ، ووطدوا بذلك عروشهم وأبعدوا نفوذهم ، وورثت الدولة الرومانية ذلك التقليد عن اليونان ضمن ما اقتبسته من أساليبهم في السياسة وطرائقهم في التفكير ، وإنها لنكسة

غريبة أن تترد الإنسانية في القرن العشرين إلى هذا الأسلوب من الحكم المزرى بالكرامة الإنسانية من أكثر نواحيه ، والذي يقدم الدليل الناصع لمنكرى حركة التقدم وجمهرة الساخرين من النوع الإنسانى المستهزئين بمبادئه وأحلامه وتعلانه وأوهامه

فما هى الأسباب والعلل التى تأدت بالأمم المتحضرة إلى مثل هذه الحالة الحزنة والحائمة الأليمة ؟ وكيف ارتضت أمم هى فى ذروة الذكاء وقمة الرقى أن تضع جهودها ومواردها ومصائرهما بين يدي فرد من الأفراد لا تؤمن نزواته ، ولا تتفق جماعاته ، مهما سمت مكانته ومهما كان حظه من البصيرة والرأى ؟ وكيف تضاءلت شخصيتها ، وفنيت ذاتيتها ، واستغرقها الزعيم فى الوقت الذى كشف فيه علم النفس الحديث عن أمراض العبقرية ، وعلل النفوس الخفية ، وأظهر ضرورة وجود رقابة لكبح شذوذ الأفراد ، ومعالجة أهوائهم ؟

أرى أن هناك أسباباً عامة مهدت السبيل لذلك وأسباباً خاصة متصلة بماضى حياة بعض الأمم وسالف تقاليدها ، ومرتبطة بمزاجها الخاص الذى تكون فى سير الدهر وعلى تعاقب الحوادث وتحت تأثير البيئة والموقع الجغرافى

ويرى بعض المفكرين الاجتماعيين أن في طليعة الأسباب العامة تزايد عدد السكان ، وبخاصة في المدن الكبيرة والحواضر المأهولة ، وتجمعهم فيها بعبيدين عن الخلوات حيث لا يجدون مخرجاً لعواطفهم الجائشة وأشواقهم الفائرة ، وما يعتلج في نفوسهم من النزاع ، فهم من ثم في حاجة إلى خلق شيء يوجهون إليه فائض شعورهم ، ومكظوم ميولهم ، ومحتبس نشاطهم ، ويطلق القوى المتدفقة في نفوسهم . ووجود الزعيم يتيح لهم هذه الفرصة الغالية ، وينفس عن نفوسهم المكروبة ، ويهيئ لقواهم المكنونة مخرجاً ، وإذا تكاثرت جموعه ، واشتدت حماسة أتباعه أصبح زعيماً للشعب بأسره لا لحزب معين أو هيئة خاصة

وسبب آخر هام ، هو طغيان السلطة التشريعية على السلطة التنفيذية في العصور الحديثة ، ومحاولة تقليل العوامل الشخصية في السياسة وإضعاف عنصرها ، فقد أثار الإفراط في ذلك رد فعل قوى استدعى العودة إلى قوة الزعامة وسحر الشخصية ، ومضاء الفرد المجتمع العزيمية ، فقادة العصر الحاضر وزعمائهم هم مظهر من مظاهر العودة إلى تقليد قديم من تقاليد السياسة التنفيذية ، يقتضى أن ينفرد الفرد بالسلطة ويضطلع بالمسؤولية ويواجه جلائل

الأمور بعد عصر الإفراط في اتباع أصول الحياة النيابية والإيغال في دروبها

ولكن المسألة أبعد إغراقاً من ذلك وأكبر شأنًا من إرضاء غرائز الجماعات وأخطر أمراً من أن تكون مجرد ثار السلطة التنفيذية من السلطة التشريعية والأساليب النيابية ، وظهور الزعامات يقوم في الأكثر على أسباب كثيرة متشابكة وعوامل متداخلة . ولأجل أن أجمع أطراف الموضوع ، وأستقرئ بعض تلك العلل والدوافع ، سأنتقل من التعميم إلى التخصيص ، وأتحدث عن هتلر زعيم ألمانيا النازية وموسوليني زعيم إيطاليا الفاشية وأبين أثر التيارات الفكرية والأحوال النفسية والظروف الخاصة التي أفسحت لهما الطريق وهيأت الفرصة

ولكى نقدر الظروف التي يسرت سبيل الظهور لهذين الزعيمين لا محيص لنا من مراقبة تيارين من تيارات الفكر في أوروبا ، أحدهما تيار الفكر التيتوني الذي يرتفع إلى هبل ونخت ويتمثل في نيتشه ، والآخر تيار الفكر اللاتيني الذي يبدأ في فلسفة برجسون ، ويبدو قوياً في كتابات سوريل وباريتو أكبر أساتذة موسوليني ، وقد أثر التيار الأول في التفكير الألماني أقوى تأثير ،

ولم يقتصر تأثيره على ألمانيا ، فقد عبر جبال الألب وامتزج بالتفكير الإيطالي ، وعلاقة التفكير الإيطالي الحديث بالتفكير الألماني معروفة عند قراء تاريخ الفلسفة الحديثة

ونيتشه الذي أحدث أكبر تأثير في الفكر الألماني الحديث لم يكن مفكراً منطقياً ولا من بناء المذاهب الفلسفية الكاملة النظام البديعة التنسيق ، وإنما كان مفكراً كثير الانتفاضات ، جم الوثبات ، يرسل الكلمات المجنحة والحكم الجامعة في أسلوب قوى حار تشرق في جوانبه لمعات العبقرية واضواء الإلهام ، وقد حمل على آداب العبيد وأشاد بآداب السادة ، واعتبر الديمقراطية والاشتراكية والآداب المسيحية مظاهر مختلفة من آداب العبيد وأخلاق الضعفاء ، وقد عملوا على إيجادها لتعرقل عمل الطبيعة التي تقضى بأن يحكم القوى الضعيف ، وفي طليعة آداب السادة النبلاء يضع نيتشه الرغبة في القوة ، وهي تستلزم أن يشير الإنسان كوا من نفسه ، ويستغل مواردها ، ويحرك فيها كل نابضة ويشعل كل خامدة ، ويفرض إرادته على الكون ويسيطر على الطبيعة ، ومن السهل أن يستفيد الطغاة من مثل هذه الفلسفة ، ويستخرجوا منها ما يؤيد خططهم ، ويثبت صحة مذهبهم ، ولكن

هذا التفسير لنيته لا يخلو من خطأ وتحريف ، لأن الإنسان الأعلى عند نيته منوط بالمستقبل البعيد ، وتصل إليه الإنسانية على مدارج العصور القادمة بعد مراحل شاقة من التطور وجهود ضخمة يبذلها سادة البشر في شق الطريق وإزالة العقبات ، ولم تكن الرغبة في القوة عند نيته مجرد رغبة في السيطرة على الناس ، وإنما هي رغبة في السيطرة على النفس وشد حيازيمها لفرض إرادتها على الكون . ولم يكن نيته من أنصار فكرة الحكومة الشاملة الكلية التي تستغرق الأفراد وتحتوى الأمة ، وتنظمها عبقرية فرد ، بل كان يحمل على فكرة الحكومة ولا يرحب بفكرة القومية ، ولكن تأثير فلسفة نيته كان أمراً آخر غير ما أراده نيته ، فهو لم يكن من محبذى الديكتاتورية ، ولكن فلسفته تضمنت حملة شعواء على الديمقراطية ، والديمقراطية في رأيه تخمد طموح الشعوب ، وتستلب حيويتها ، وتصدّها عن حياة المغامرة ومعاناة الأهوال ، وتتركها تغط في نعيم الحرية والمساواة والإخاء ، وهو كان يريد الحركة وإيقاظ العزائم . ومن الهين أن يتصور كل ديكتاتور أنه إنسان نيته الأعلى ، برغم أن نيته كان يود أن يحتفظ بهذا اللقب

ليجود به على إنسانه الأعلى الذى سيتمخض عنه المستقبل البعيد وكل زعيم سياسى مهما كان غريباً فى آرائه ، شاذاً فى تفكيره ، فإنه لا يمكن أن يكون منقطع الصلة بتقاليد قومه واتجاه تفكيرهم ، ومن ثم فإن العقيدة النازية لا تبدأ بهتلر وإنما ترتقى فى سلسلة النسب إلى نيتشه ، وترتفع منه إلى نظرية الدولة التى قال بها هيجل — والدولة فى رأى هيجل « ظل الله فى الأرض » — وإلى نظرية صراحة الشعب الألمانى التى نادى بها نخت ، وثورة هتلر على السامية مستمدة من آراء هوستن ستيوارت شمبرلين المعروف بمخالاته فى الحملة على اليهود ، والذى خصص صفحات من كتابه المشهور « أساس القرن التاسع عشر » ليثبت أن المسيح ألمانى الأصل ويبرئه من اليهودية ، ولقد كانت عبادة القوة على الدوام من خصائص السياسة الألمانية وسمات التفكير الألمانى . ولقد أسس بسمارك الوحدة الألمانية بالدم والحديد ، ولقد سلبت الحرب الكبرى ألمانيا النصر الذى كانت تحلم به وجللتها عارا ، ووسمتها بميسم الهزيمة ، وتبعته أزمات اقتصادية عسرت القوم وأملقتهم وأكثرت بينهم المتعطلين ، فجاءهم موسى الكليم فى صورة هتلر ليخرجهم من التيه ويقودهم إلى أرض الميعاد ، وقد استطاع

هذا « المخلص » الجديد في سنوات معدودة أن يستنقذهم من الخضيض ويرحض عنهم الإهانة ويرفعهم إلى ربوة الأمل .

أما التيار الفكري اللاتيني الذي يبدأ من برجسون ، ويستمد قوته من فلسفته فقد أخذ صوراً متعددة ، ولبس أزياء مختلفة ، وبرجسون يذهب إلى أن الآداب في صميمها مسألة حيوية ، وأنها ثمرة قوة الحياة التي تحرك الخليقة بأسرها ، وقوة الحياة هذه تعمل في الإنسان وعالمه الأدبي بطريقتين ، فهي من ناحية تسليح الإنسان بالفريزة ، وتخلق على أساسها الآداب الاجتماعية البدائية التي تقوم عليها المصالح المشتركة والمطالب الاجتماعية ، وهي من ناحية أخرى تزود الإنسان بالفهم وتحبوه العقل ، وتخلق ضرباً آخر من ضروب الآداب مداره وحى الفرد وإلهام عاطفته ، وأدب الفرد ثمرة وثبة مفاجئة لأن الحياة تمنح هؤلاء الأفراد القدرة على التجديد ، واستحثات خطوات الانسانية والتقدم بها ونقلها إلى آفاق أرحب ، والفرد الذي تختصه الطبيعة بالقدرة على إيجاد آداب جديدة فيه شمائل إنسان نيتشه الأعلى ولوائحه ، وإن كان برجسون لا يناوئ الديمقراطية ولا ينصب لحربها ، وبطل الآداب عنده هو خادم الانسانية الأمين لا جبارها المصعر

خده ، ولا سواها الحطم ، ولكن إذا كانت مبادئ الديمقراطية تتساق مع تلك الأفكار فإن طبيعة حركتها ، وطريقة سيرها تنافرها وتناقضها ، وذلك لأن الديمقراطية تعتمد على التقدم التدريجى ، والمجهود المتصل ، وفلسفة برجسون قائمة على الوثبة المباشرة والتطور المفاجئ ، والديمقراطية تعول على مناقشة الآراء ، والتعاون فى تحرى الأمور ، وتقليبها على وجوهها ، وفلسفة برجسون تثبت أن الكثرة الغالبة من الناس تدين بالآداب التى يرجع الفضل فى تقديرها إلى الأفراد ، فدوافع الحياة ليست ديمقراطية ، وهى تعمل بالوثبات غير المنظورة ، والقوة المسعفة فى هذه الوثبات هى الفرد الممتاز الذى تتمثل فيه شهرة التقدم ، ونزعة التجديد ، والتطلع إلى صور الحياة الطريفة ، ومعانيها المبتكرة ، فمذهب برجسون لهذه الاعتبارات ملون باللون الارستقراطى ، وقد تأثر برجسون سوريل ، ولكنه آثر أن يجد القائد الذى ينقل المجتمع ويخطوبه إلى الأمام بين طبقة العمال ، والطبقة المتوسطة والطبقة العليا فى نظره تعيشان على تراث الماضى ، وطبقة العمال هى الطبقة التى فى وسعها خلق الصفوة الممتازة ، وهذه الصفوة هى التى تحرك المجتمع وتعمل على ترقيته ،

ولا تحجم عن مصادمة القوة بالقوة ، ودفع العدوان بالعدوان ، وفلسفته هي فلسفة برجسون ممزوجة بعناصر مستخلصة من تعاليم كارل ماركس ، ولكنها برغم ذلك المزج بقيت محتفظة بفكرة « الزعامة » وفكرة « الوثبة المفاجئة » .

ونظرية باريتو صديق سوريل ، وأستاذ موسولينى ، هي تمديد وبسط لنفس هذه الطريقة من طرائق التفكير ، فهي نظرية تقوم على أن التاريخ من صنع الصفوة الممتازة من البشر ، فهم يؤلفون زعامة اجتماعية مستمدة من مزاياهم الشخصية ، ومكانتهم المرموقة ، وهم يحاولون أن يحتفظوا بنفوذهم حتى بعد أن ينتهى دورهم وتنضب قوتهم ، ولكن ظهور صفوة مختارة جديدة نابعة من أعماق المجتمع ، حاملة رسالة جديدة ، وهمة طريفة ، فى كنف أسطورة جديدة ناشئة يزحزحهم عن مكانتهم ، ويمحو نفوذهم ، وهذا النزاع الدائم بين الصفوات المختارة من النظريات التى يتكون منها المذهب الفاشى .

فى آراء برجسون وسوريل وباريتو ما يؤيد نظرية الزعامة الديكتاتورية ، ويبين فائدة الوثبة التى تحدث من أثر القوة المتجمعة فى نفس الزعيم ، ودوافع الحياة المتجسمة فيه ، وبها تستطيع الطبيعة أن تنقل الانسانية من مستوى إلى مستوى أرفع

مستعينة في ذلك بعامل آخر يسميه سوريل وباريتو « عامل الأسطورة ». والمقصود به الأوهام التي تشد أزر الإنسان، وتقوى نفسه، وتهون عليه لقاء الشدائد، واحتمال الآلام في سبيل تحقيق أحلامه، فالإنسان في رعاية الزعيم، وفي ظلال قيادته، وتحت تأثير سحره وجاذبيته، وفي حمى الأسطورة ينبذ الماضي، ويجفو آثاره، ويتقدم إلى المستقبل في ثقة واطمئنان.

وقد بدأ هذا التيار من الفكر اللاتيني في فرنسا، وتدفق منها إلى إيطاليا، وهناك بلغ القمة، وانتهى إلى الغاية، وإيطاليا في تاريخها كانت على الدوام مسرحا لظهور الشخصيات الجريئة المتفحمة غير المترددة، والزعامات الجريئة الممتازة في الدين والسياسة، وليس بالمستنكر على أمة عانت الأمرين من انصداع الوحدة، وتفرق الشمل، وفقدان الشعور القومي فترات طويلة من حياتها أن ترى في الزعيم المفرد رمز الوحدة، وعنوان الاتحاد، وباعث القومية، وغير غريب أن تلتف أمة أكثرها من المزارعين الذين عسرهم الفقر، وطغى على مداركهم الجهل حول زعيم بارز، ذرب اللسان، قوى الشخصية، حاضر البديهة، ماضى العزيمة، وتنقاد لأرائه، وتسير إذا ما سار خلفه وتأتم به.